الوقت الضائع

رأيتنا نحضر الولائم والدعوات مبكّرين فإن دعينا للغداء حضرنا بعد الظهر مباشرة في الغالب وإن دُعينا لعشاء استعجلنا الحضور بعد صلاة العشاء ولو تأخر الواحد منّا ساعة قبل الغداء والعشاء لما فاته شيء ولو صرف هذا الوقت فيما ينفع من تلاوة أو ذكر أو مطالعة لسلم من عناء استقبال المدعوّين وتكلف الحديث فيما لا يعني فإن غالب هذا الوقت يصرف في سؤال الناس عن أحوالهم وأخبارهم وعن الأمطار والأسعار ومثل هذا الكلام البارد حبّذا لمن حضر هذه الدعوات أن يأتي قبل الوجبة بوقت يسير ولو اصطحب معه كتاباً أو رسالة فنفع الناس لكان أفضل من قتل الزمان في قول مكرر وحديث فارغ ومن حضر ولم يناسبه المجلس فليكثر من الصمت والتبسم وذكر الله. واعلم أن أكثر ما يقتل الزمان هو الوقت الضائع قبل الغداء وقبل العشاء أو انتظار ضيف أو صديق ومن جاهد نفسه في ذات الله نصره عليها.

لا تحرص على التصدر زمن الشباب

الشباب مهما رزق من العقل والعلم فلا يزال عنده من العجلة والاندفاع وعدم تقدير العواقب ما يوجب عليه الانتظار والصبر وعدم الاستعجال على التصدّر فقد وجدت أذكياء نابغين يحفظون العلم حفظاً ولكنهم وقعوا في أخطاء لأنهم شباب، ورأيت من أحب الإمامة

والخطابة والتدريس وغلط في مواقف لأنهم شباب. وكان سلفنا يطلبون العلم في شبابهم ويتأدبون فإذا خطهم الشيب تصدّروا وعَلّموا غيرهم، وقد بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام في الأربعين من أعمارهم وهو سن الرشد العقلي وتمام التجربة وكمال الرشد وذهاب الطيش وغروب العجلة وضبط الاندفاع.

وصيّة من عاقل

حدثنا أحد العقلاء المجربين الذين كان لهم اتصال بأهل الثروات والمناصب أنه ذاق حياة الترف والبذخ مع أولئك القوم ثم رجع إلى حياة الشظف والاقتصاد، قال: فوالله لحياتي الثانية مع الفقراء أسعد أضعافاً مضاعفة من تلك الحياة الأولى، حياة النعيم والإسراف، وذكر أن قلبه في تلك الفترة كان قلقاً مضطرباً حزيناً أسيفاً، أما الآن فهو مع قلة ذات اليد في سرور وحبور وانشراح، أدمن الجلوس في الروضة خلف الإمام وصاحب المصحف وأكثر من ذكر ربه فهو في سعادة وهناء، فيا من ظن أن السعادة قصر مشيد وامرأة حسناء ومنصب مرموق ومال وفير أخطأت التقدير وغلطت في الحساب، السعادة في صلاة بخشوع وقراءة بتدبر وذكر الله بحب ومطعم حلال ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

فن الحفظ

من أراد الحفظ فعليه بكثرة التكرار للمحفوظ، وإعادة النظر فيما

يقرأ بين الفينة والأخرى، والتأمل والتدبر والوقوف عليه عبارة عبارة ليطبع في الذهن، وينسخ في الذاكرة، فإن الكتابة في الذهن على حسب التكرار كمن يكتب بقلم واضح أو ضعيف، ومن أعظم الأصول تقليل المحفوظ والمداومة، فإنه لا عالم إلا حافظ، وزينة الأديب حفظه، ولا أشرف من الحفظ، وعلم لا تدخل به الحمام ليس بعلم، وإنما يعظم العالم بجلال ما يعي وكثرة ما يحفظ وعظيم ما يحوي، أما جمع الكتب والنظر فيها فكل يحسنه حتى الباعة والورّاقون والخرَّازون.

الشريعة مقاصد وأسرار

١ ـ وثوق الخطاب الشرعي بفهم السامع السَّيء.

٢ ـ الشريعة تخاطب السواد الأعظم في غالبها ويبقى للنادر خصوصيته.

٣ ـ الملة تهتم بالعمليات ولا تعتد بالأفكار المجردة.

٤ ـ الشرع يقر ببشرية الإنسان في أوامره ونواهيه.

٥ ـ الشريعة تعطي كل مسألة حقها من الاهتمام بلا غلو ولا جفاء.

٦ ـ الكتاب والسنة لا يحبذ الإغراب، وإنما يهتم بالمعروف المشهور.

٧ ـ محمد ﷺ في الشريعة رسول معصوم أسوة وليس إلهاً ولا رجلاً عادياً.

٨ ـ مقصود الشريعة إصلاح العبد ليكون تقيًّا طائعاً وليس القصد أن يكون ملماً بفروع العلوم أو داهية أو مشهوراً أو غنيًّا أو سلطاناً أو نحو ذلك.

٩ ـ الشريعة لا تهتم بواردات النفس وخطرات القلب والاحتمالات النادرة الوقوع.

١٠ ـ أخبار الإنسان في الكتاب والسنة عما يهم السامع ويتعظ به من صلاحه وفجوره وإيمانه وكفره وهدايته وضلاله ولا تورد تفاصيل حياته ودقائق سيرته وكذلك القصص.

الجاحظ

أدمنت النظر في كتب هذا الرجل فما وجدت مثله نصاعة بيان وحسن عرض وفخامة لفظ وسعة وإشراق عبارة وجزالة إنشاء ولكنه متناقض يسف أحياناً في المعاني ويورد شبهاً وليس له تقوى تعصمه ولا ورع يردعه فربما خدش وجه الدين ولربما هتك حجاب الملة مع إقذاع يورده وفحش يغلبه واضطراب في معتقده، فهو صاحب معرفة لكن لا تتجاوز القلم وصاحب بيان لكن من طرف اللسان ومثله يستفاد منه ولا يتابع في مذهبه ومشربه.

رسائل حية

يقول أحد العلماء: عليك أن تشغل نفسك بطاعة الله عزّ وجلّ وعبادته وذكره وشكره، فإنه سوف يدافع عنك، لأنه يدافع عن الذين آمنوا، ومادمت في الخدمة فأبشر بمن يردّ عنك كيد الكائد وحسد الحاسد، فما عليك إلا أن تقوم بواجب العبودية وترك ما تكفّل الله به، فالله منجز وعده ولا يخلف عهده.

فـائـــدة

أعظم ما مُدح في القرآن بعد التوحيد التقوى، فلم يمدح العلم ولا المال ولا الولد ولا الجاه إلا مع التقوى، فليعلم العبد أن أعظم الخصال تقواه سبحانه، وأنها المقصود الأول في الدين.

إدام الخبز

قالوا للإمام المحدث الورع الزاهد العابد بشر الحافي، وكان فقيراً: ما هو إدام خبزك؟ قال: إدامه العافية. وهذا جواب مليح، فإن العافية يصلح معها كل طعام، والمرض يعكر كل لذيذ، فالمعافى يجد لطعامه ونومه وشرابه غاية الشهيةح

خاصة إذا جاع، والعافية أعظم كنز، فهي أغلى من قناطير الذهب والفضة، وأثمن من الجواهر والياقوت، وأجمل من الحدائق والبساتين، ومن عنده مال وهو مريض فليس لماله وقع ولا نفع، ومن عنده ملك وهو سقيم فليس لملكه عنده وزن ولا قيمة، خبز الشعير مع العافية والماء البارد ألذ مأدبة، وأجمل وجبة، وأجل أكلة، ولباب البر وصافي العسل ولحم الضأن مع السقم مر المذاق وعلقم محرق.

رغيف خبز يابس تأكله في زاويه
وكوز ماء بارد تشربه من راويه
خير من الساعات في ظل القصور العاليه
تعقبها عقوبة تصلى بنار حاميه

الاهتمام بالنص

حق على كل من يحترم عقله من المنتسبين إلى الشريعة والمنتمين إلى الملة أن يهتموا بالنص الشرعي من الكتاب والسنة أكثر من اهتمامهم بالشروح والتعليقات والحواشي والردود، والتي زادها الناس على النص، فالنص وحده مباشر هو الذي يقذف الله به نور الإيمان في القلب وبركة الفهم في الذهن وضياء الحكمة في البصيرة، والنص وحده هو المقصود بالتفهم والتدبر والدراسة، وما أشبه الذين لووا أعناق النصوص عن مقاصدها بكلامهم وشروحهم بمن أخرج درة نفيسة من عمق البحر ثم أكثر من لمسها وتقليبها حتى ذهب بريقها، وخفض لموعها، إن أصفى شيء من النهر ما أخذ من عند مصبه مباشرة، والمران على تفهمه وتدبره ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وإن أعذب شيء من الغيث ما كان منه قبل وصوله الأرض واختلاطه بالتراب، وكذلك النص الشرعي آية وحديثاً أعذب شيء منه ما أخذت البصيرة منه بلا واسطة من شارح ومعلق ومذيِّل، وإن ما تراه من أكوام هائلة من الشروح إنما طرأت في عصور الوهن وشحوب القرائح وجمود الأذهان، وركود الخواطر، وفتور الهمم وسقوط العزائم، وإلا فإن عصر الصحابة لم يكن إلا عصر نص يفهم على سياق اللغة، ويؤخذ على ظاهر الخطاب، فهل كان عند الصحابة هذه التفاسير التي بلغت المئات، وشروح الأحاديث التي فاقت الحصر، مع مصنفات في الوسائل من أصول الفقه وعلوم القرآن ومصطلح الحديث، ولو كانت

هذه لدى الصحابة لصرفتهم عن متعة العيش مع النصوص المباركة من الآيات والأحاديث، ولسلبت عليهم شطراً من أذهانهم في الوقوف على كلام الناس، وتعليق الناس، وشرح الناس، إن أحسن ما في حياة الصحابة هذا التفرغ الجاد للوحي، وهذا الانكباب العجيب على النص، وهذا التلهف الحار على الخطاب الشرعي مباشرة، وإن من أزكى أعمال الصحابة تنقيب بصائرهم في مناجم النصوص الشرعية من الكتاب والسنة دون عائق من تقليد، أو حائل من كلام متكلف، أو صارف من شبهة ذي هوى.

لقد قل كلام الصحابة فكثر عملهم، وغزر فهمهم، وعظمت معرفتهم، لأنهم وقعوا على قلب الحقيقة، وأمسكوا برأس الحبل، ولزموا وسط الجادة، علموا أن القرآن بيِّن واضح جلي مشرق معجز، فوقفوا خاشعين لبلاغته، وسجدت بصائرهم في محراب البيان لفصاحته، فاهتدوا بهداه، واستضاؤوا بنوره، وعلموا أن السنة كلام أفصح من تكلم، وحديث أبلغ من تحدث، فأخذوا دلالتها دون زيادة ولا نقصان، فالقرآن فصيح مشرق معجز، حتى يأتيك متحذلق متكلف ليملأ الصحف بشروحه وكلامه على القرآن فيكاد يغطي بجلباب كلامه على نور القرآن ليذهب بروعته وجماله وقوه أثره، وما أفصح المسلم ساكتاً في محراب التفقه في النص الشرعي يتصيد بقلبه مقاصد الخطاب، ويلقط بفهمه درر الإعجاز، لكن قوماً همهم الكلام والشرح والتعليق والزيادة، حتى أذهلهم هذا العناء عن روعة البيان الزاهي الخلاب للنص الشرعي.

علم لا ينفع

من علامات العلم الضار الذي لا ينفع صاحبه قسوة القلب وجمود العين وطول الأمل وحب الظهور والتصدر والتقدم على الأقران والتكالب على الدنيا وحب الثناء وكثرة الكلام والحسد والغضب من النصيحة ومحبة كثرة الأتباع وعشق الألقاب الفخمة والازدراء بالآخرين والتقصير في النوافل وحب الخلطة والفرار من العزلة، فإذا وجدت هذه الخصال وأمثالها في طالب علم تم هلاكه واستحكم مرضه وزاد بلاؤه.

فائدة

الراجح جواز بيع الرطب بالرطب، والعنب بالعنب، ونحوه من الرطب، بمثله مع التماثل.

أهل الحديث

نجوم سماء العلم، كواكب قبة الفهم، تيجان المدارس، بدور المجالس، هم الذين قطعوا من أجل الحديث القفار، وركبوا البحار، لبسوا الليل واستفاؤا بالنهار، كم من حكمة كتبوها، كم من دمعة سكبوها، كم من عرق في الطلب أذروه، كم من مداد في الدفاتر أجروه، وكم كدوا الأذهان في الدراية، أما أتعبوا القلوب في الرعاية، أما حثوا النفوس على العناية.

نام الناس على الريش وناموا على الثرى، وغط الأوباش في النوم

وهم ركب السرى، واشترى المفلسون الرقاد وهم عافوا الكرى، ثيابهم من الأسفار ممزقة، جلودهم من حرارة الهواجر محرقة، عمائمهم من خصاصة الفقر ملفقة، خفافهم من المشي مخرقة، أكلوا أوراق الشجر من الجوع، وأدمنوا السهر، وطلَّقوا الهجوع، وبللوا القراطيس بالمداد والدموع، ركبوا من البحر الثبج، والتحفوا من الليل لجج، وقنعوا من كل نديم بالسرج، آه ما أحسن حدثنا في المسامع، وما أجمل أخبرنا في المجامع:

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا جبال سليمى ما سقيت لغنت

اشتغل الناس بجمع الدرهم والدينار، وبناء الدور وحفر الأنهار، وعمارة البساتين وغرس الأشجار، واشتغلوا هم بجمع الآثار، ونقل الأخبار، ومصاحبة أنفاس المختار.

سهر الناس مع أصوات العيدان، ونغمة القيان، وأشعار فلان وعلان، وسهروا هم مع سفيان وحماد، ومجاهد وابن الهاد، ساعة مع المتن وساعة مع الإسناد.

آية أحاديث نعمان وساكنه إن الحديث عن الأحباب أسمار

إيوان أحدهم ظهر البعير، ومجلس أنسهم وجه الهجير، وطعامهم خبز الشعير، هجروا الخمير والحرير والسرير، صبروا على أحر من الجمر، وصبغوا ثيابهم بالحبر، وصاحبوا الجوع والظمأ والفقر.

جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء، وعن السنة أكرم العطاء، وعن الملة دار البقاء.

رحم الله تلك العظام، وأسكنها دارالسلام، وأحلها أحسن المقام، بجوار النضرة، وجعلها بالنعيم مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وحشرنا الله معهم في زمرة الأبرار، وصحبة الأخيار.

القناعة

من رزقه الله القناعة فقد أراد به خيراً لأنه يكف بها وجهه عن ذل السؤال ويصون بها عرضه عن كلام السفلة ويريح نفسه من التردد على أبواب السلاطين. ومن تاقت نفسه للمال فعليه بالكسب الحلال وهجر الكسل فإن أحلى لقمة ما جاءت بعرق جبين، وأفضل درهم ما حصل بتعب، ونعوذ بالله من أن تذل رقابنا لغيره فإن من أعطاك عطية حفظها أبد الدهر واستعبدك بها ومن عنده أنفة استغنى عن الناس، وما أحسن الحرفة والكسب على العيال فإنها من أحلى العبادات إذا أحسنت النية ومن قرنها بالاقتصاد في النفقة والرضا بالقليل وتعويد النفس على الإقلال من فضول المباحات والبساطة فيه والتوسط في السكن واللباس والمركب والغنى غنى النفس، وأفقر الناس من جعل حاجته إلى الناس ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

أنـــا لا أرغـــب تقبيـــل يـــد ... قطعهـا أحســن مــن تلــك القبــل
إن جـزتنـي عـن صنيعـي كنـت فـي ... رقهـــا أولا فيكفينـــي الخجـــل

نريد خطباء لا معين

أعلم أني لا زلت شابا والكثير يكبرني سنًّا ويفوقني علماً ونبلاً

وفضلا لكنني قرأت كتباً ورسائل في فن الخطابة لمسلمين وغير مسلمين وسوف أذكر بعضها في هذا البحث، وعشت زمناً أحاول أن أطبق ما أقرأ من فن الأداء والإلقاء والأسلوب والعرض فأصيب حينا وأخطىء أحيانا، فأقمت في مدن كثيرة فلم أجد ذلكم الخطيب الذي يخلب الألباب ويهز القلوب ويملك المشاعر، نعم! هناك علماء وقضاة ودعاة ولكن لم ألق خطباء بمعنى هذه الكلمة إلا الواحد أو الاثنين أو الثلاثة مع ملاحظات، من هو الخطيب الذي يمكن أن يسكب في قلوبنا الحياة والتأثير والإقناع؟، من هو الخطيب الذي نسلم له نفوسنا ليصقلها ويطوعها ويهديها سواء السبيل؟، من هو هذا الخطيب الذي يصل بصوته إلى ضمائرنا فيجتث منها الخواطر الخاطئة والأفكار المغلوطة ويصل بحجته إلى قلوبنا فيقتلع منها هواجس السوء ووساوس الشيطان، لقد قرأت عن عشرات الخطباء المسلمين وغير المسلمين شرقيين وغربيين تركوا في أممهم أثراً بيِّناً بخطبهم ومواعظهم ولكن هل تحس منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً؟

كل هذا الخلق غر وأنا منهم فاترك تفاصيل الجمل

رأيت على المنابر من يقرأ علينا صحفاً اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، يسردها علينا سرداً بلا تأثير ولا جاذبية ولا أداء ولا حرارة، ولا ظل وطل.

ورأيت من يغطي وجهه بأوراقه عند الإلقاء فهو محجوب عن الناس طيلة الخطبة يريد أن ينتهي من هذه الأوراق ليلقي عن نفسه تبعة

الخطبة، وهناك من يخطب فيتلعثم من شدة الخوف ويرتبك من الخجل والوجل يكاد إذا صعد المنبر أن يولي فرارًا ويمتلىء رعباً.

نعم.. العلم شيء والخطابة شيء آخر.

أجل.. التقوى والفضل والمكانة محاسن، والخطابة حسنة أخرى.

في هؤلاء من يحسن الإلقاء والأداء ولكنه ضحل المادة بخيل في عطائه ومحصوله فكأنه ما قال شيئاً، وفيهم صاحب الحجة والبرهان الحافظ المطلع على كنوز الميراث وذخائر العلوم ولكنه بارد، في صوته خيوط النعاس ومقدمات الكرى، وأظن أن الخطابة ليست جمعاً لأطراف الموضوع بلا فصاحة وأداء وإلقاء وتأثير، وليست صوتاً صاخباً بلا حجة وإقناع وجاذبية، إن الخطابة قلب شجاع، ولسان فصيح، ومادة حية، وذاكرة واعية، وبديهة لماحة، وإشارة موحية، ونبرة فخمة، وأداء خلاب، وحجة بالغة، ونفس متوثبة مجنحة، وهي استيلاء على المشاعر، وامتلاك للعواطف، وقدرة على جذب النفوس، وفكر لا اعوجاج فيه، ونفس صحيحة من الأدواء، وعقل مسدد، ولسان سليم من عيوب الأداء، وشخصية قديرة متألقة، وبرهان يقذف به على الباطل والزيف فيدمغه.

التفكير النافع

عليك بتوجيه تفكيرك إلى الأمور النافعة وأجلّها التفكر في

أسمائه وصفاته ودينه وكتابه ورسوله وما يقربك من رضوانه واحذر إطلاق تفكيرك بلا قيود فإن الفكر إذا ترك وحاله شط وانحرف وجلب لك كل ما يزعج، بل بعض الناس يتفكر في المعاصي والمخالفات والشهوات المحرمة ويخطط لنيل هوى نفسه ومراد شيطانه منه، فاضبط تفكيرك فإن أول الفعل فكرة ثم إرادة ثم اعتقاد ثم عمل، وغزارة التفكير تأتي مع الخلوة وتدبر آيات الله والتأمل في قدرته سبحانه ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ وتفكر ساعة خير من نافلة سبعين سنة ومعنى هذا هو التفكر فيما يزيد الإيمان ويرضي الرحمن لأن هذا ينفع العبد أعظم من نفع عبادة لا روح فيها ولا تدبر، ووصيتي لك إذا شطح فكرك فرده سريعاً إلى الجادة ووظفه فيما ينفع ليثمر لك قطوفاً دانية يانعة من البر والخير والتقوى وأول الغيث قطر ثم ينهمر.

ونُيسِّرك لليسرى

أحاديث التيسير منها: الذي أصابته شجة، وتيمم عمرو بن العاص، ويسرواْ ولا تعسرواْ، وإن هذا الدين متين، وعليكم بالقصد، وبُعثت بالحنيفية السمحة، وخير دينكم أيسره، وعليكم بما تُطيقون، وما خُيِّر بين أمرين، و «أفتان أنت يا معاذ»، وكان عمله ديمة، وأفضل العمل ما داوم عليه صاحبه، وإنكاره على الثلاثة الذين شدّدوا، ودعهم يا عمر لمَّا لعب الحبشة، وتجوزه في الصلاة، وفطره في السفر وقصره، ومن أمَّ بالناس فليخفف، وهلك المتنطعون، ولم يعنف على

من شرب الخمر بل جلده ونهى عن لعنه، ولم يعنف على من جامع أهله في نهار رمضان بل أفتاه، وإنما بعثتم ميسِّرين، وما كان الرفق في شيء، وإن الله رفيق، وإن قصر خطبة الرجل، وإنكاره على عبد الله بن عمرو كثرة عبادته، وتقديره لسلمان يسره، ونهيه عن الوصال وعن سرد الأيام وقيام الليل كله وختم القرآن كل يوم، وزجره من قام في الشمس، ومن صمت إلى الليل، وقاربوا وسددوا، ولو لم تذنبوا، وأذنب عبد ذنبا.. ليفعل عبدي ما شاء، واذهب فقد غفر الله لك، والمرأة البغي والكلب، ومن أخر غصن شجرة، والرجل يأكل الأكله فيحمده عليها، ومن هلل مائة، ومن سبح مائة، ويا ابن آدم إنك ما دعوتني، وتوبة من قتل مائة نفس، ومن أمر بتحريق نفسه، ومن كان يتجاوز عن الناس، والتيمم، والمسح على الخفين، وبوله واقفاً في سباطة قوم، وشربه واقفاً من زمزم، وإياكم والغلو، ونهينا عن التكلف، وإذا قام أحدكم يصلي فنعس فليرقد، وكان يتخوَّلنا بالموعظة، فشق عليهم فاشقق عليه، وعدم انتهاره من بال في المسجد، وقرص المني اليابس من الثوب فحسب، وقراءة القرآن مضطجعاً ومواكلته للحائض، وإذا أمرتكم بأمر، وصلاته النافلة قاعداً، وعلى الراحلة حيثما توجهت به، ورُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه، ورفع القلم عن ثلاثة، وإن الله يبسط يده، ولولا أن أشق على أمتي، وتركه التراويح خشية أن تفرض عليهم، وسكت عن أشياء رحمة بكم، وذروني ما تركتم، وقوله للرجل لما قال: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، أفلح إن صدق، وحمله أُمامة في

الصلاة، وأربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، وإن المنبت، وتوبة الغامدية وماعز، والصلاة في النعلين، ومسحهما بالتراب عند وجود الأذى، ووضوء المستحاضة عند كل صلاة فقط. إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة والتي تدل على يسر الإسلام وسماحته.

خاطرة

كثير من الناس ليس للوقت عنده قيمة، فتراه يدور في الأسواق بلا غرض ويشاهد المسلسلات بذهول، ويسهر الليل في اللهو واللغو، وكأنه ما عرف لماذا خُلق، وإلى أين يذهب. نعوذ بالله من الخذلان.

لكل أجل كتاب

يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ ومجيء قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ بعد ذكر التقوى والتوكل فيه سر لطيف، ومقصد شريف، فمن اتقى ربه وتوكل عليه، فلا يتباطىء عون الله، ولا ييأس من روحه، ولا يقنط من رحمته، ولا يقطع أمله من الفرج. فإنه إذا اتقى وتوكل فسوف يأتيه الفرج لا محالة، وسوف يجد الخروج من الضيق بلا شك، لكن للأمور أوقات، وللمقدور عمر لابد أن يقضيه حتى يصل، وكل شيء عند الله بأجل مسمى، فما على العامل إلا العمل، حتى يحصل له مراده أو خير من مراده، ولا يقول: دعوت فلم يستجب لي، بل يطمئن إلى حسن اختيار ربه، وجميل صنيعه، وجليل حكمته، وسعة علمه،

وكمال قدرته، وتمام رحمته.

فالله جعل لكل شيء قدراً، له زمن لا يتعداه، ووقت لا يتخطاه، فإذا جاء موعد المقدور، فلا يستأخر عن وقته ساعة ولا يستقدم.

للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول، لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للمرض أيام معدودة، وليال محسوبة، ثم ينكشف لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

للهمِّ ساعات، وللغمِّ أوقات، ثم ينجلي بسرور لاحق وفجر صادق، لأن الله قد جعل لكل شيء قدرا.

للفقر أزمان ولو طالت، وللعدم أوقات ولو قست، ثم ينقشع، لأن الله قد جعل لكل شيء قدراً.

فما عليك إلا أن تعمل وتحرص على الخير وتبذل الوسع، وتخلص السعي، وتصحح العمل، وتحقق العبودية، ثم اترك ثمرات الأعمال، ونتائج الأحوال لذي العزة والجلال.

لا تستعجل حصول المرغوب وإزاحة المرهوب، فالأمر ليس إليك، بل إلى من جعل لكل شيء قدراً.

إن الإيمان بأعمار المصائب سلوة للمنكوبين، وإن التصديق بآجال المحن عزاء للمصابين، إن للمكروه زمناً لا يتجاوزه أبداً فتحيّلك في إزالته قبل حينه ضرب من الهوس، وفن من فنون الوسوسة، لأن

مهمتك كيف يزول لا متى يزول، فمن حرص على كيفية زواله دعا وأخلص وجد واجتهد واتقى وصبر، وتوكل وأناب وفوض الأمر إلى الملك الوهاب، ومن تعلق قلبه بزمن الزوال وارتحال المكروه استبعد الفرج، واستبطأ الروح، وصاحبه الإحباط ورافقه الفشل، وسامره اليأس، وحادثه القنوط، فلا يزال في أودية الاضطراب وطرق السخط والندم والحسرة واللوم وتمزيق القلب بسياط القلق، فقلبه فزع، وذهنه شارد، وحاله كاسفة، وباله مشتت، وباطنه ناقم ثائر معترض شاك.

ولو آمن أولا بالقضاء، وسلم الأمر لرب الأرض والسماء، وأخلص في الدعاء، وانتظر الفرج في وقته والنصر في حينه، وحسن العاقبة في زمانها، وجميل الصنع في ساعته، وفرحة إدراك المطلوب في موعده، لو فعل ذلك كله لأدرك سعادة من إذا أذنب استغفر، ومن إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، ولحصل على أعظم الأجر وانشراح الصدر، ورفعة الذكر، فالله هو المقدر، جعل لكل شيء قدراً.

لا تثمر الشجرة حتى يأتي حينها، ولا تبزغ الشمس حتى يحل ميقاتها، ولا يطل القمر حتى يحصل زمن إطلاله، ولا تضع الحامل حملها ولا تفطم ولدها إلا بأجل، ولا يندمل الجرح، ولا يبرأ الموعوك، ولا تعود الضالة إلا بعد ما يمر بالكل العمر المقدر والأجل المقرر.

فاعلم أنه لا يعني بذل الأسباب حصول المطلوب في الوقت

المقترح، والزمن المختار، بل في الساعة التي كتبها الله وحده، فإنه غالب على أمره، فعال لما يريد، وهو المقدم والمؤخر، أحاط بكل شيء علماً، فقد أتى أمره فلا يستعجل، وقرب فرجه الأجمل، له الحكم وإليه ترجعون فلكل أجل كتاب، ولكل شيء حد، ولكل بلاء زمان، ولكل حدث عمر، فسبحان المدبر جل في علاه، لا إله إلا إياه.

القراءة .. القراءة !

أول كلمة في الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وخير جليس في الأنام كتاب، أعظم لذة تصفح عقول الرجال، ومن خدمته المحابر حملته المنابر، من صاحب الصفحة حاز الشرف، ما نظر رجل في كتاب إلا خرج بفائدة، الغنيمة الرابحة قطف الحكمة من الصحف، انسخ حروف العلم في ألواح قلبك، واكتب سطور الإفادة على صحيفة روحك، واكتحل بكلمات المعرفة لترى ملكوت السموات والأرض، يوم تخلو بالكتاب تطوى لك الأزمان وتطل عليك الدهور وتناجيك العبر وتشجيك العظات، وتصقلك التجارب، وتدهشك العجائب، احلب در العلم من ثدي الأسفار، فإن في الدفاتر مملكة الأفكار، صاحب الكتب مع كتبه أغنى من قارون الكنوز، وأعز من نعمان الكتائب، وأحسن حالا من البرامكة، مصاحب القرطاس أطيب عيشاً من نديم الكأس، ومدارس الآثار أعظم من المنصت لنغمة الأوتار، مصاحبة الكتاب يصونك من تيه الملوك، ويحميك من صلف الجبابرة،

ويحوطك من سطوة الظلمة، ويحفظك من لوم الحاسد، وتشفّي الشامت، ورؤية الثقيل، ومنة البخيل، وكدر الغبي، ومؤونة المغتاب وطيش السفيه، أكثر من فلي الكتب ودوام تفتيش الصحف، وصابر مسامرة المصنفات، ما قيمة الزمن بلا مطالعة، ما فائدة العمر بلا قراءة، كيف يحلو العيش بلا كتاب، ذهبت الدول، ونسي الملوك، وتعطلت الأسواق، ودرست المنازل، وتهدمت القصور، وبادت الحدائق، وفنيت الأموال، وهلك الرجال، ولكن خلدت الحكمة في الكتب، وبقيت المعرفة في الصحف، وقرّ العلم في المؤلفات، ودامت تركة المعرفة، إن الأنبياء لم يُورِّثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب

من فوائد العزلة

في العزلة.. صعود النفس في سلم العبودية من تلاوة مبكية وتفكر نافع وذكر ومحاسبة وإنابة وتوبة وندم على تفريط، وجود على نعمة، وشكر على عطية، واستعاذة من بلية، وطلب للزيادة، ومحافظة على الأوراد.

وفي العزلة.. جمع النية وإخلاصها، وعتاب النفس على ما فعلت وتبكيتها على ما صنعت، وتأديبها على ما اقترفت، ومطالبتها بالزيادة في العبادة والإنابة.

وفي العزلة.. نفع عظيم للعلماء في تأليف الكتب وتصنيف الرسائل وشرح المسائل والتعليق على المغلق من العلم وحل المبهم وجمع المتفرق ولمّ شعث المتناثر وإخراج كنوز الحكمة.

وفي العزلة.. الاهتمام بالأهل والعيال وتأديب الأطفال والقيام بحقوق الوالدين والزوجة والأبناء وتعاهد أحوالهم والاطلاع على أمورهم ورعايتهم وكفايتهم وتعليمهم وتقويمهم.

وفي العزلة.. النجاة من الفتن وحوادث المحن التي يجرها جهل الجاهل واندفاع الغبي وقلة عقل الصبي وضعف رأي الغافل وربما وصلت إلى سفك الدماء واختلاف الآراء وذهاب الأموال وتغير الأحوال.

والمعتزل.. في أمن وأمان، وحرز مُصان، وفي عافية وامتنان وهذا فعل كثير من الصحابة عند الفتن فإنهم أغلقوا على أنفسهم أبواب الدور، وأرخوا عليهم الستور ومنهم من فرّ إلى الصحراء وخرج إلى البيداء ورعى الشاء ليسلم من أراجيف العوام وزعازع الهوام أهل الحوادث الطوام والمشكلات الجسام.

وفي العزلة.. كتم الأسرار وحفظ الأخبار فما كل ما يُعلم يُقال وربما صعب الصمت مع الخلطة وتعسر السكوت مع الناس، وما استعان عبد على قضاء حاجة بمثل كتمان، ومن حفظ سره كان الخيار في يده.

وفي العزلة.. السلامة من التكلف للناس في الهيئة والتزين لهم

في الكلام والتتبع لهم في الأحوال ومسايرتهم في الأموال والسكوت عنهم ولو صدر منهم رديء الأفعال فإن من أنكر عليهم استثقلوه وملّوه وهجروه، ومن وافقهم أتلف دينه وأضاع نصيبه وضلّ سعيه.

وفي العزلة.. البعد عن المنكرات التي يلزم على العبد فيها الإنكار وهو قبل رؤيتها سالم العهد بريء الذمة ولكنه إذا رآها وجب عليه الإنكار بحسب حاله وربما قصّر فأثم، وكم من غيبة في مجلس سمعها فما غيّر، وكم من مخالفة رءاها فما أنكر، وكم من مسألة سُئل عنها فكتم وما أخبر.

وفي العزلة.. أعظم عبرة وأجلّ فكرة في معرفة حقيقة هذه الدار وحقيقة أهلها، وتذكر القرون الماضية والأجيال الغابرة، كيف كانوا؟ وأين صاروا؟ أين قصورهم؟ أين دورهم؟ أصبحوا في قعر اللحود طعاماً للدود وهذا الفكر لا يأتي مع تشتت الفكر، ومن تذكر مع الخلطة فإنما تذكر وهو مشغول مع الناس بقلب لاه وفكر ساه.

فائدة

كل حب قد يتغير إلا حب الوالدين، وكل تعاطف قد يضعف إلا تعاطف الوالدين، وكل لوعة تنطفىء إلا لوعة الوالدين، قرن الله حقهما بحقه، فيا ويل العاق ما أقسى قلبه وأعظم جحوده وأقل حياؤه.

دعـــاء

اللهم كما شرفت جباهنا بالسجود لك فلا تذلها للانحناء لغيرك،

وكما أسعدت نفوسنا بحبك فلا تشقها بحب سواك، وكما كرمت أيدينا بسؤالك فلا تهنها بسؤال الآخرين، اللهم اغننا عنهم جميعاً، كبيرهم وصغيرهم، فإنهم فقراء بخلاء جبناء، وأنت القوي العزيز الغني الماجد.

من عجائب التأريخ

قرأت سير الخلفاء فعجبت لقصر أعمار الكثير منهم، واغترارهم بالدنيا وانخداعهم بالملك، فمثلا الخليفة الهادي توفي وعمره ثلاث وعشرون سنة فقط، قيل مات مسموماً، وكان يتناول المسكر ويلعب، وهارون الرشيد توفي وعمره خمس وأربعون مع بطشه وجبروته. وابنه الأمين عمره سبع وعشرون. والمأمون ثمان وأربعون، والمعتصم سبع وأربعون، والواثق ست وثلاثون، والمتوكل أربعون، وعلى ذلك غالبهم، فأخذني العجب، يا الله، مع هذا العمر القصير المحدود يغتر العبد ويخدع ويغفل فيبطش ويسفك الدماء، ويجمع الأموال، ويبني الدور، ويعمر القصور، فعلمت أن للحياة سكاراً كسكار الهوى، فلا يستفيق صاحبه إلا عند وفاته، فتراه يندم على ما فرط إن بقيت فيه الحياة، ويولول ويصيح، ولكن هيهات: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾.

قرأت سير الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية بالمشرق والمغرب وخلفاء بني العباس في العراق وفي مصر، فإذا هم يقاربون مائة خليفة لم يبق من ميراثهم إلا الذكر، ولا من قصورهم إلا الأطلال، ولا من

سيرهم إلا الأقوال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

فأنا أعظ كل من قرأ هذا الكلام وأولهم نفسي في الانتباه والمبادرة بالتوبة، ونضح ثوب الذَّنب بِذَنوب من ماء العين مع الندم، وانتظار الموت وإعداد العدة، وتهيئة الزاد، وترقب لقاء الله عزّ وجلّ.

آه يالها من موعظة أعني قراءة أخبار هؤلاء الخلفاء والملوك، شادوا وسادوا وأملوا طويلا وعاشوا قليلا، أين القصور والدور أين المحابر والمنابر، أين البنود والجنود، أين الأقلام والأعلام لا شيء ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم رأيت في أخبارهم عجباً فمنهم من قُتل، ومنهم من سُمَّ، ومنهم من خُلع، ومنهم من سُمِّلت عيناه، ومنهم من ضُرب حتى مات ومنهم من حُبس حتى هلك، فأخذني العجب فلو أن لبصيرتي عيناً ما نامت الليالي، ولكن الغفلة الغالبة والأمل البعيد، وإن في أخبار هؤلاء الخلفاء والملوك لعبرة لكل معتبر، وعظة لكل متعظ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

فيا أيها المغتر بشبابه لقد كانوا أوفر منك شبابا، ويا أيها التائه بماله لقد كانوا أكثر منك مالا، ويا أيها المغرور بمنصبه لقد كانوا أرفع منك منصبا.

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد